بلاد سوريَّة في القرن الثاني عشر

وفقًا لرواية ابن جبير

نظر للاب هنري لامنس مدرّس الجغرافية الشرقيَّة في الكتب الشرقيّ

١ تعريف رحلة ابن جبير

في السنة الهجريَّة ٥٧٨ الموافقة لسنة الميلاد ١١٨٤ اعني سنتين قبل فتح السلطان صلاح الدين للقدس الشريف حضر من الاندلس رحَّالة مسلم ليزور بلاد الشام. وكان السائح الموما اليهِ يُدعى بابي الحسين محمَّد بن احمد بن جبير الكنانيّ (١. كان تتلمَّذ في بلاد المغرب والاندلس المناصب الشريفة وتقلَّب في الاعمال المنيفة. فلمَّا عاد الى وطنهِ دوَّن اخبار سفرهِ الى الشرق (٢. وهذه خلاصة رحلتهِ: ركب ابن جبير البحر في سبتة مقلعًا الى الاسكندريَّة على مركب للجنويين فمرَّ على جزيرة سردانية فصقليَّة فجزيرة اقريطش وبلغ الاسكندريَّة بعد ٣٠ يومًا ثمَّ طاف الصعيد ومال الى عيذاب فقطع بحر القلزم الى جدَّة وسار منها الى مكَّة فاتمَّ فريضة الحجّ ثم زار المدينة ورحل منها الى العراق برًّا فوصل الى الكوفة ومنها الى بغداد. ثم كرَّ راجعًا الى المغرب فمرَّ بالموصل وبلاد الجزيرة الى ان بلغ منبج فدخل سوريَّة وزار اولًا حلب ثم وادي العاصي ثم دمشق وصور وعكَّة ومنها البحر الى الاندلس على احدى المراكب الجنويَّة

ولا نتعقَّب آثار المؤلف في كل رحلتهِ بل نكتفي بما كتبهُ عن سوريَّة التي عليها مدار كلامنا. ووصفهُ لها يشغل في الكتاب نحو ٧٠ صفحة ونحن نقصر درسنا على هذا

---

١) من احبَّ مطالعة ترجمة ابن جبير بالتفصيل عليهِ بمقدمة العلَّامة رَيت (W. Wright) الذي تولَّى طبع اسفارهِ ومقدَّمة المستشرق الفاضل دي غوي الذي جدَّد آخرًا طبع هذه الرحلة والى اعداد صفحاتها نشير. وليراجع خصوصًا ما كتبهُ عنهُ العلَّامة سكياپارلي (C. Schiaparelli) الذي نقل رحلتهُ الى الايطالية ونعود الى ذكر ترجمتهِ. واطلب ايضًا ما كتبهُ المقري عنهُ في نفح الطيب

٢) ثم عاد ابن جبير الى انحاء الشرق فزارها ثلاثًا لكنَّهُ لم يروِ في كتابهِ غير اخبار رحلتهِ الاولى

القسم فقط فنبيّن خواصَّهُ وفوائده . وقد صرفنا اليهِ نظرنا بعد المقدسيّ لانَّ بين الكاتبين بوناً عظيماً في كلامهما عن سوريَّة لا يكاد يجمعهما غير وحدة الموضوع . وكان الاول كما سبق القول وطنيًّا وكان ابن جبير اجنبيًّا غريباً . كتب المقدسيّ بصفة جغرافيّ مدقق امَّا ابن جبير فانهُ يكتب كتابة الرحَّالة الذين يدوّن كلّ يوم ملحوظاتهِ في محفظتهِ كما أثّرت فيهِ وعملت في قلبهِ . وقد اختلف ايضاً الكاتبان في اسلوبهما وغايتهما ولذلك تجد تعريفهما لبلاد الشام متبايناً وبينهما نحو القرنين . فانَّ المقدسيّ يقصد قبل كلّ من كتابتهِ الافادة والتعليم . امَّا ابن جبير فانهُ يتوخَّى من كتابتهِ بهجة القرَّاء وترويح البالهم . وكذلك تجد الاوَّل كثير التدقيق محبًّا للضبط والايجاز . على خلاف الثاني الذي يطلق العنان الى قلمهِ فلا يحصر نفسهُ في قالب او يتقيّد عليها بخطَّة معلومة فتراه يمزج تفاصيل رحلتهِ بما يعاينهُ ويسمعهُ وربَّما ادمج وصفهُ بالاخبار والماجريات التي جرت أبّان رحلتهِ او نقلها عن الرواة . كما فعل بذكر صلاح الدين (ص ٣٠٠–٣٠١) . فانهُ يروي عنهُ اموراً بائنةً عن ذلك الملك العظيم الذي كان يحاضر حينئذٍ حصن الاكراد

وكلا الكاتبين يدَّعي مع ذلك انهُ لا يروي غير ما شهدهُ بالعيان . على انَّ المقدسيّ يشمل في وصفهِ كل انحاء سوريَّة بينما يقتصر ابن جبير على ذكر الامكنة التي احتلَّها في سفرتهِ وان كانت تلك الامكنة ليست قليلة لأنَّ الرحَّالة تفقَّد معظم مدن سوريَّة الشهيرة في زمانهِ اللهمَّ الَّا جهات فلسطين وربَّما زاد في اوصافهِ لمدن الشام اموراً وفوائد جغرافيَّة فاتت المقدسيّ او ضرب عنها صفحاً

وممَّا نبَّهنا اليهِ الخواطر في كتاب المقدسيّ فانتقدناهُ عليهِ استعمالهُ احياناً للسجع في اوصافهِ . لكنَّ المقدسيّ في ذلك لا يتجاوز حدود كتبة زمانهِ ولا يبالغ كثيراً . امَّا ابن جبير فانَّ السجع يغلب على انشائهِ فيواصلهُ في صفحات متتالية . ومن المعلوم انَّ السجع يؤدي بصاحبهِ الى حشو الكلام والى استعمال الغريب والى التصنُّع فيبتعد الكاتب عن طرائق الكتابة الساذجة المألوفة ويبدلها بالمعاني المستغلقة والتعابير المتبهمة وكان السجع قليلاً في عهد الجاهليَّة وفي قرون الاسلام الاولى ثم تكاثر بانحطاط فنون الكتابة . وما نقولهُ بالاجمال يصحُّ في سجع ابن جبير ألا ترى مثلاً كيف وصف مدينة حلب بما يشنف اذن السامع دون ان يجديهُ نفعاً كبيراً في معرفتها قال (ص ٢٥٠) :

« بلدة قدرها خطير . وذكرها في كل زمان يطير . خطَّابها من ملوك كثير . ومنها من

النفوس اثير . فكم هاجت من كفاح . وسلّت عليها من بيض الصفاح . لها قلعة شهيرة الامتناع . بائنة الارتفاع . ممدومة الشبه والنظير في القلاع . تدرّعت حصانةً ان تُرام او تُطاع . قاعدة كبيرة . ومائدة من الارض مستديرة . . . »

الى آخر ما هناك من الكلام المسجّع (اطلب نخب الملح ٣ : ٩٠) الذي ليس تحتهُ كبير امر . ومثلهُ في وصف بساتين دمشق (ص ٢٦٠) :

« ظلّ ظليل . وماء سلسبيل . تنساب مذانبهُ انسياب الارقم بكلّ سبيل . ورياضٌ يحيي النفس نسيمها العليل . تتبرّج لناظريها بمجتلًى صقيل . وتناديهم هلمّوا الى مرس الحسن وتقبيل . قد شمت ارضها كثرة الماء . حتى اشاتت الى الظماء . فتكاد تناديك الصمّ الصلاب . اركض برجلك هذا مغتسل باردٌ وشراب . قد احدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر . . . »

وممّا يستحقّهُ القارئ في مطالعة رحلة ابن جبير كما في اخبار الاسفار عمومًا انّ كاتبها يشير الى خواطر نفسهِ ويترجم عن احوالهِ الشخصيّة وشواعرهِ لدى معاينتهِ الآثار والبلاد فمثال ذلك انهُ اذا رأى بلدًا في الشام تذكّر نظيرهُ في الاندلس وقاس ذاك بهذا لما يجد فيها من الشبه . كما فعل بحمص التي ذكّرتهُ اشبيلية . قال (٢٥٨) :

« وتجد في هذه البلدة عند إطلالك عليها من بُعد في بسيطها ومنظرها وعيثة موضوعها بعض شبه بمدينة اشبيلية من بلاد الاندلس يقع للحين في نفسك خيالهُ وبهذا الاسم سُمّيت في القديم وهي العلّة التي اوجبت نزول الاعراب اهل حمص فيها حسبما يُذكر وبهذا التشبيه وان لم يكن بذاتهِ فانهُ لمحةٌ من احدى جهاتهِ »

ولهُ قول كهذا في قنّسرين وهو يعارضها بجيّان الاندلس (ص ٢٥٩) :

« وتشبيها من البلاد الاندلسيّة جيّان ولذلك يُذكر انّ اهل قنّسرين عند استفتاح الاندلس نزلوا جيّان تأنّسًا بشبه الوطن وتمثّلًا به مثل ما فُعل في اكثر بلادها حسب ما هو معروف (١ »

هذا وانّ في انشاء ابن جبير تعابير والفاظ تفرّد بها تُشعر بأصلهِ المغربيّ . وفي النصوص التي نثبتها عنهُ دليل على ذلك

ومهما كان الامر من محاسن ابن جبير ونقائصهِ فانّهُ لمقرّر انّ هذا الكاتب احد

---

١) اطلب معجم البلدان لياقوت (٣ : ١٠٥-١٠٦) ولهُ ملاحظة كهذه

ارباب القلم يعتبرهُ المستشرقون اعتبارًا عظيماً . قال العلَّامة رورخت في كتابهِ المئون مكتبة جغرافي فلسطين (١ : « انَّ رحلة ابن جبير غاية في الخطر لمعرفة بلاد الشام ». وقد ادرجت جمعيَّة الكتابات والفنون في باريس قسماً كبيرًا من هذه الرحلة في مجموع مؤرخي الحروب الصليبيَّة الشرقيين (٢ لما أودع الكتاب من الفوائد التاريخيَّة عن الامور الجارية في زمانهِ . وقال الاستاذ سكيابارلي في مقدِّمة ترجمة ابن جُبير انهُ « اذا قوبل بينهُ وبين غيرهِ من رحَّالي العرب كالمقدسي وابن بطوطة وغيرهما لا يوجد ابن جبير دون احد منهم في شيء من حيث الضبط والدقَّة وحسن الاسلوب وخطر الامور المدوَّنة » هذا ما قالهُ سكيابارلي وحكمهُ صوابٌ وان كنَّا نرى انَّ المقدسيّ اعلى طبقةً من ابن جبير . لكنَّنا نقدِّر ايضاً ابن جبير قدرهُ كما اقرَّ بفضلهِ ابن بطوطة وغيرهُ ممَّن استشهدوا بهِ ونقلوا عنهُ

ومما افادنا ابن جبير تعريفهُ لاحوال اهل الشام ووصفهُ لعاداتهم كما لحظها في تجوُّلهِ بينهم فدوَّن ملحوظاتهِ فيها وبما انهُ كان غريباً تجدهُ يتسع في بيان امور لا ينصرف اليهِ نظر اهلها ولولاهُ لجهلناها تماماً . فمن ذلك عدَّة اشياء ذكرها في دمشق قد اخفى عليها الزمان منذ زمن طويل كالبنكام الذي رآهُ هناك (ص ٢٦٩—٢٧٠) وكقبَّة النسر التي وصف خصائصها (ص ٢٩٣) واستغرب حجارتها فقال :

« وفي الجدار حجارة كل واحد منها يزن قناطير مقنطرة ولا تنقلها الفيلَة فضلاً عن غيرها فالعجب كلّ العجب من نظمها الى ذلك الموضع المفرط السموّ وكيف تمكَّنت القدرة البشريَّة فسبحان من ألهم عبادهُ الى هذه الصنائع العجيبة وسيَّرهم على التأتي لما ليس موجودًا في طباعهم البشرية وظهر آياتهِ على يد من يشاء »

فليت شعري ما عساهُ كان قال ابن جبير لو رأى حجارة بعلبك او عاين هياكلها العجيب الَّا انَّ مسيرهُ لم يؤدِّ بهِ الى تلك المدينة (٣

---

١) اطلب Rœhricht: *Bibliotheca Geogr. Palestinæ*, p. 12

٢) اطلب Historiens des Croisades, III, 442-456

٣) ذكر ابن جبير بعلبك (ص ٢٥٨) مرَّة واحدة دون وصفها وألحق بذكرها قولهُ « اعادها الله » كانهُ ظنَّ انها في ايدي العدوّ . وهو وهمٌ ظاهر لانَّ بعلبك لم تحصل قطّ في حوزة الفرنج

٢ سوريّة وابن جُبير

رأيتَ في الفصل السابق الطريقة التي توخّاها ابن جبير في تسطير رحلته وما ضمّنها من الفوائد . فبقي علينا ان نرافقهُ في سياحته في بلاد الشام فنلتقط بصحبته بعض المعلومات عن سوريّة في مختتم القرن الثاني عشر ولا غرو فانَّ دليلنا فكهُ النفس متوقّد الذهن فيبهج رفقتهُ ويفيدهم معاً

بعد ان اجتاز ابن جبير بلاد الجزيرة قطع الفرات فكان اوّل ما لقيهُ في وجههِ من بلاد الشام منبج . فاحسّ السائح بجواد قلمهِ يُركض فاسترسل في وصفها بالسجع كالوف عادتهِ (ص ٢٤٨) ولم يذكر من خواصها الّا التمر القليل ممّا لا يُشفى بهِ العليل ولا يُروي الغليل . ثم سار من منبج الى حلب فوصفها وصفًا طويلًا روينا شيئاً من الفاظهِ المبهرجة . وألحق هذا الوصف باشتقاق اسم حلب فقال (ص ٢٥١) :

« كانت قديمًا في الزمان الاوّل ربوة يأوي اليها ابراهيم الخليل بغُنيمات لهُ فيحلبها هنالك ويتصدّق بلبنها فلذلك سُمّيت حلب والله اعلم »

وهذا الاشتقاق في الغرابة بمكان ذكرهُ ياقوت في معجم البلدان (٢ : ٣٠٤) مرتابًا في صحّتهِ وقد زاد عليهِ ابن بطوطة ما هو اغرب فجعل بدلًا من الغنم بقرةً شهباء . قال : فكان اذا حلبها ابراهيم قيل « حلبَ ابراهيمُ الشهباء » . وليس في كل هذه الاشتقاقات كما ترى ذرّةٌ من الصحّة وانّما هي مشابهات لفظيّة لا طائل تحتها . ومثلها اشارة ابن جبير الى اشتقاق اسم حماة من حَمَى يحمي (ص ٢٥٥)

ومن ملحوظات ابن جُبير في مسيرهِ من حلب الى دمشق (ص ٢٥٤) انَّ « خانات هذا الطريق كأنّها القلاع امتناعاً وحصانةً وابوابها حديد وهي من الوثاقة في الغاية » وكفى بهذا دليلًا ناطقًا على احوال بلاد الشام في عهدهِ . وقد كرّر الرحّالة مثل هذا القول غير مرّة اطلب مثلًا قولهُ في خان السلطان (ص ٢٥٩)

ثم يذكر ابن جبير في طريقهِ من حلب الى حماة « جبل لبنان » على حسب عادة الاقدمين الذين كانوا يطلقون هذا الاسم ليس فقط على لبنان الحالي بل ايضاً على جبال النصيريّة الواقعة في شمالهِ (١ وجعل في سفح هذا الجبل (ص ٢٥٥) « اللاحدة

١) اطلب كتابنا تسريح الابصار (ج ٢ : ٢-١٠)

الاسماعيليَّة » وذكر شيئاً من بدعتهم . امَّا لبنان الحالي فقد عرَّفهُ ابن جبير بما حرفهُ (ص ٢٨٧):

« وهذا الجبل من اخصب بلاد الدنيا فيهِ انواع الفواكه وفيهِ المياه المطَّردة والظلال الوارفة »

واضاف الى قولهِ ما يؤيد قول المقدسيّ في العبَّاد المنقطعين الى الله في لبنان فقال: « وقلَّ ما يخلو من التبتيل والزهادة »

ثم مرَّ ابن جبير في رَستن (ص ٢٥٧) فاشار الى آثارها العظيمة وتخريبها على يد عُمر بن الخطَّاب ثم قال: « ويذكر القسطنطينيُّون انَّ بها اموالاً مكنوزة والله اعلم » وقولهُ هذا صدى لمزاعم العامَّة في كل زمان عن المطالب والدفائن المكنوزة في الاخربة القديمة وهو شائع في انحاء سوريَّة الى عهدنا هذا وربَّما صدَّقهُ الجهَّال فاخربوا بسببهِ عدَّة آثار جليلة حطَّموها طمعاً في ما تحتها من الكنوز المرصودة على زعمهم

ومما اثنى عليهِ في حمص محاسن بساتينها وطيب هوائها وذكر قبر خالد بن الوليد ثم قبر ابنهِ عبد الرحمان الذي اشبه اباهُ بجليل اعمالهِ . واضاف اليهما قبر عبد الله (١ ابن عمر الذي قُتل في صفّين . ويؤخذ من قول ابن جبير انَّ جثَّة عبد الله نُقلت الى حمص بعد موتهِ . وكانت حمص على عهد ابن جُبير فقدت كثيرًا من محاسنها كما لحظ الكاتب حيث قال (ص ٢٥٨):

« واسوار هذه المدينة في غاية المتانة والوثاقة مرصوص بناؤها بالحجارة الصمّ السود وابوابها ابواب حديد سامية الاشراف هائلة المنظر رائعة الاطلال والإتانة تكتنفها الابراج المشيَّدة الحصينة وأمَّا داخلها فما شئت من بادية شمّاء خلقة الارجاء مانقة البناء . لا اشراق لآفاقها . ولا رونق لاسواقها . كاسدة لا عهد لها بنفاقها »

ثم واصل المسافر سيرهُ من حمص الى دمشق . وكانت الطريق بينهما قليلة العمران كما في ايامنا اللهمَّ الَّا ثلاث او اربع قرى التي احتأبها كفارة التي لم يجد فيها غير النصارى (ص ٢٥٩) والنبك . وبعد اجتيازه في خان السلطان قنيَّة العُقاب فقُصَير دخل الفيحاء فاطلق العنان لقلمهِ في وصفها . وقد اتَّسع في ذكر محاسنها واطنب اي اطناب ولولا

(١ هي الرواية الصحيحة وليس كما روى الاستاذ سكيابارلي في ترجمتهِ الايطالية غير مرَّة « عبد الله » فانَّ عبد الله بن عُمر مات وقبر في مكَّة كما اتَّفق عليهِ كافة المؤرخين

مبالغتهُ في السجع لقلنا انَّ كلامهُ من اوفى ما جاء في بيان صفاتها لا نستغني من ذلك الَّا بعض الكتب الخاصَّة التي وُضعت في فضائل دمشق . ودونك ما روى عن بعض ابنيتها قال (ص ٢٨٣) :

« وهذه البلدة نحو عشرين مدرسة . وبها مارستانان قديم وحديث والحديث احفلهما واكبرهما وجرايتهُ في اليوم نحو الخمسة عشر دينارًا ولهُ قَوَمة بابدانهم الأزمَّة المحنوية على اسماء المرضى والنَّفقات التي يحتاجون اليها في الادوية والاغذية وغير ذلك والاطبَّاء يبكرون اليهِ في كلّ يوم ويتفقَّدون المرضى ويأمرون باعداد ما يصلحهم من الادوية والاغذية حسبما يليق بكل انسان منهم والمارستان الآخر على هذا الاسم لكنَّ الاحتفال في الجديد اكثر . وهذا القديم هو غربيّ الجامع المكرَّم . وللمجانين المعتقلين ايضًا ضربٌ من العلاج وهم في سلاسل موثقون نعوذ بالله من المحنة وسوء القدر »

وفي كتاب زبدة كشف الممالك (ص ٦٥) ما يشبه هذا الوصف في مارستانات دمشق

ومما يجدر بنا ذكرهُ الميقاتة اي الساعة التي كانت على باب جيرون اثبت المشرق سابقًا (٣ : ٩٨٥) كلامهُ فيها وهي من عجائب ذلك الزمان

ولولا ضيق المكان لاثبتنا شيئًا مما ذكرهُ ابن جبير عن الجامع الكبير الذي اتَّسع في وصف ارخامهِ الملوَّنة وبلاطهِ المذهَّب المنقوش بالفصوص البديعة وكانت الفسيفساء تزين جدرانهُ الخارجة المتَّصلة بصحنهِ (ص ٢٦٨) فكانت اشعَّة الشمس تصيبها وتنعكس الى كل لون منها فيأخذ منظرهُ بالابصار

ومما يزيد بهِ انذهال القارئ وصفُ ابن جبير لمساجد اخرى عجيبة البنيان بديعة النقوش والارخام وجدها في قرى الغوطة فافاض في محاسنها

ثم تابع ابن جبير مسيرهُ من دمشق الى عكَّة (ص ٢٩٨ — ٣١٠) مارًّا بدارِيَّة ثم بانياس ثم وادي تبنين بين حصنَيْ هونين وتبنين حتى بلغ ساحل الشام . ووصفهُ لطريقهِ غاية في الظرافة والاعتبار يصوِّر احوال ذلك الزمان تصويرًا بيِّنًا ويمثِّل للعيان ما كان يجري في انحاء الشام من الامور الخطيرة . وكان ابن جبير في صحبة قفل من التجَّار يسيرون بامان في بلاد العدوّ لاتفاق لطيف جرى بين الفريقين ترويجًا لسوق التجارة ولطفًا بالعباد (١ وهذا لعمري دليل على ترقي التمدّن في ذلك العهد وفيهِ عبرة

١) ولابن جبير في هذا المكان عدَّة تفاصيل وبيان عادات مألوفة تُحيل القرَّاء الى مطالعتها لما تتضمَّن من الفوائد لتعريف احوال ذلك الزمان

لاهل زماننا الذين لم يتمكَّنوا من صيانة حقوق التجارة في وقت الحرب رغماً عمَّا اقاموه من مؤتمرات السلم

ولابن جبير كلام حسن في وصف صور نثبتهُ هنا ليتمكَّن القارئ من المقابلة بينهُ وبين وصف المقدسي (راجع الصفحة ٦٩٠) قال (ص ٣٠٤):

« اما حصانتها ومَنَعتها فاعجب ما يحدَّث به وذلك انَّها راجعة الى بابين احدهما في البرّ والآخر في البحر وهو محيط بها الَّا من جهة واحدة فالذي في البرّ يُفضَى اليهِ بعد ولوج ثلاثة ابواب .او اربعة كلّها في ستائر مشيدة عميقة بالباب . واما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدَين الى بناء ليس في البلاد البحريَّة اعجب وضعاً منهـا يحيط بها صور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بهـا من الجانب الآخر جدار ممدود بالجصّ فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها وتعترض بين البرجَين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج فلا مجال للمراكب الَّا عنـد ازالتها وعلى ذلك حرَّاس وأُمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج الَّا على اعينهم فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوقع . ولكنَّة مثلها في الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك وانَّما ترسي خارجها والمراكب الصغار تدخل فيها فالصوريَّة اكبر واجمل واحفل »

وبقي ابن جبير في عكَّة حتى اقلعت منها سفينة جنويَّة عادت به الى المغرب . وكان الركَّاب ألفَين وليس هذا العدد مفرطاً ونحن نعلم انَّ بعض السفن الحربيَّة كانت تحمل ١٢٠٠ جنديّ ما عدا الخيل . ومنها ما كان يركبها الزوَّار في عدد ١٥٠٠ (١ . وبين القوانين التي وُضعت للبحريين في ذلك العهد انهُ لا يسوغ انْ يُتجاوز هذا العدد الاخير (٢ ومن المعلوم انَّ سفن ذلك الزمان كانت شراعيَّة لا يمكنها السفر الَّا في فصول محدودة وقد نبَّه ابن جبير الى هذا الامر بقولهِ (ص ٣١١):

« وفي هبّ الريح جذه الجهات سرّ عجيب وذلك انَّ الريح الشرقيَّة لا تهبُّ فيها الَّا في فصلي الربيع والخريف والسفر لا يكون الَّا فيهما والتجَّار لا يترلون الى عكَّة بالبضائع الَّا في

---

١) اطلب ما جاء في هذا الصدد في كتابي مرشان وبرنس:
J. Marchand : *De Massiliensium cum Eois populis commercio*, p. 46 ; H. Prutz : *Kulturgesch. d. Kreuzzüge*, p. 105

٢) اطلب كتاب شوب في تاريخ تجارة الشعوب الرومانية مع سواحل البحر المتوسط
A. Schaube : *Handelsgesch.* d. *roman. Voelker d. Mittelmergebicht*, p. 202.

راجع ايضاً مقالتنا في تعريف هذا الكتاب (المشرق ٦ : ٩٢٢)

هذين الفصلين والسفر في الفصل الربيعيّ من نصف ابريل وفيه تتحرَّك الريح الشرقيَّة وتطول مدَّتها الى آخر شهر مايه واكثر واقل بحسب ما يقضي الله تعالى به والسفر في الفصل الخريفيّ من نصف اكتوبر وفيه تتحرَّك الريح الشرقيَّة ومدَّتها اقصر من المدَّة الربيعيَّة وانما هي خاصة من الزمان قد تكون خمسة عشر يوماً وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف والريح الغربية اكثرها دواماً فالمسافرون الى المغرب والى صقلية والى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقيَّة في هذين الفصلين انتظار وعد سابق فسبحان المبدع في حكمته المعجز في قدرته لا إله سواه »

وكانت حياة الركَّاب على تلك السفن الكبيرة ذات حركة وتقلُّبات كأنَّها المدن الصغرى تمثِّل كلّ اطوار المعيشة اليوميَّة . وممَّا اثبتهُ ابن جبير في رحلته وصف عيد اقامهُ النصارى على ظهر السفينة بابَّهة عظيمة ورونق عجيب قال (ص ٣١٣) :

« وفي ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب وهو اوَّل يوم من نونبر (كذا) العجميّ كان لنصارى عيد مذكور عندهم احتفلوا لهُ في إسراج الشمع وكاد لا يخلو احد منهم صغيراً او كبيراً ذكراً او انثى من شمعة في يده وتقدَّم قسيسوهم للصلاة في المركب ثم قاموا واحداً واحداً لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم والمركب يزهر كلّهُ اعلاهُ واسفلهُ سرجاً متَّقدة وقناديلا على تلك الحالة أكثر تلك الليلة »

وكان المركب في تلك الاثناء ابتعد عن سواحل الشام واقترب من جزيرة صقلّية فلا حاجة ان نتعقَّب آثار سائحنا بعد ذلك وانَّما ندوِّن هنا بعض الملحوظات العموميَّة التي تُستفاد من رحلة ابن جبير بخصوص الشام ومن اقوالهِ ما يفيد ويروِّح الالباب معاً

فمن ذلك انهُ يستعمل اسماء الشهور القبطيَّة والروميَّة معاً كما رأيت في النصّ الاخير . ومنها ما لحظهُ في اهل الشام من المبالغة في اتخاذ الالقاب والتعظيم في السلام بما لا أثر لهُ اليوم قال (ص ٢٨٨) :

« ومخاطبة اهل هذه الجهات قاطبةً بعضهم لبعض بالتبويل والتسويد وبامثال الخدمة وتعظيم الحضرة واذا لقي احدٌ منهم آخر مسلّماً يقول جاء الملوك او الخادم يرسم الخدمة كنايةً عن السلام فيخاطبون الخال تخاطباً والجدُّ عندهم عفاء مغرب وصفة سلامهم ايماء الركوع او السجود فترى الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض وربَّما طالت جمل الحالة في ذلك فواحد ينحطّ وآخر يقوم وعمائمهم تهوي بينهم هوياً وهذه الحالة في الانحطاف الركوعيّ في السلام كنَّا عهدناه لقبَّات النساء . . . فيا للعجب منهم اذا تعاطوا جميع هذه المعاطاة وانتهوا الى هذه الغاية في الالفاظ بينهم فبماذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم لقد تعارت الاذناب عندهم والرؤوس ولم يميِّز لديهم الرئيس والمرؤوس . . . »

وقد اثنى في محلّ آخر على احتفاء اهل الشام بالضيوف وحسن معاملتهم للغريب فقال (ص ٢٧٨):

« فالغريب المحتاج هنا اذا كان على طريقة مصونٌ محفوظ غير مريق ماء الوجه وساتر الغرباء ممّن ليس على هذه الحال ممّن عبد الخدمة والمهنة يُسبَّب لهُ ايضاً اسباب غريبة من الخدمة اما بستان يكون ناطوراً فيه او حمّار يكون عيناً على خدمته وحافظاً لاثواب داخليه او طاحونة يكون امينًا عليها او كفالة صبيان يؤديهم الى معاصرهم ويصرفهم الى منازلهم الى غير ذلك من الوجوه الواسعة »

ومن ثم يدعو اهل وطنه ليأتوا بلاد الشام لينتجعوا خيراته العميمة قال (٢٨٥):

« فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل الى هذه البلاد ويتغرّب في طلب العلم فيجد الامور الميسرات كثيرة فاوّلها فراغ البال من امر المعيشة وهو اكبر الاعوان واهمّها فاذا كانت المعيشة فقد وُجد السبيل الى الاجتهاد ولا عذر للمقصّر الّا من يدين بالعجز والتسويف . . . فهذا المشرق بابهُ مفتوح لذلك فادخل ايها المجتهد بسلام وتغنّم الفراغ والانفراد قبل علق الاهل والاولاد ويُقرع سنّ الندم على زمن التضييع والله يوفّق ويرشد لا اله سواه . . . ولو لم يكن هذه البلدات المشرقيّة كلّها الّا مبادرة اهلها لاكرام الغرباء وايثار الفقراء ولاسيّما اهل باديتها فانك تجد من بدار الى برّ الضيف حيّاً كفى بذلك شرفًا لها وربّما يعرض احدهم كسرتهُ على فقير فيتوقّف عن قبولها فيبكي الرجل ويقول : لو علم الله فيَّ خيرًا لاكل الفقير طعامي . لهم في ذلك سرٌّ شريف »

وفي كل هذه الاقوال ما يدلّ على اعتبار ابن جبير لاهل الشام وارتياحه لسجاياهم الطيّبة

*

كفى بهذه الامثلة شاهدًا على اقتدار المؤلف وخواص كتابه وحسن نظره بالامور وهذا ما حمل كثيرين على نقله الى اللغات الاوربيّة بتمامه او باقسام منهُ . ومن ذلك ترجمة كاملة ايطاليّة نشرها في العام المنصرم العلّامة سكياپارلي (١ وقد تصفّحنا هذه الترجمة فوجدناها بالاجمال مضبوطة جامعة بين الامانة وحسن الذوق . وقد توصّل المترجم الى ان يزيل اللُّبس والشبهات عن عدّة مواضع كان مسخها النسّاخ فتحقّق روايتها الاصليّة واخرج معناها الصحيح . بيد انّنا كنّا وددنا لو ذيّل جناب الناقل ترجمتهُ

١) اسمها

Jbn Gubair : *Viaggio in Ispagnia, Sicilia, Siria e Palestina, Mesopotamia, Arabia, Egitto.* Roma, 1906, XXVII—412.

بحواشٍ اوفر وملاحظات اوسع . وقد وقع مع ذلك في هذه الترجمة بعض اغلاط منها (ص ٢٥٠) انهُ لم يفرق بين الواقعة الواقعة في جوار حمص وتُصَيِّر المجاورة لدمشق ومن ثم ليس « النهر الجاري امامها » نهر العاصي كما ظنّ . وقد كرّر هذا الغلط في محل آخر (ص ٤٠٠) — وكذلك وهمَ (ص ٣٨٧) بزعمهِ انَّ باب الجابيَة في دمشق معناهُ باب الحَوْض . وانما دُعي بهذا الاسم لانهُ كان باب يؤدي الى الجابية وهي حاضرة بني غسّان . الّا انَّ هذه الاغلاط لا تمرُّ في شيء قَدْر هذه الترجمة التي تولّى عملها . كما انهُ جمع في مقدّمتهِ من الافادات في تعريف المؤلف ما لم يبلغهُ احد قبلهُ . هذا فضلًا عن الفهارس التي ألحقها بالكتاب . فنثني اذن الثناء الطيّب على الترجمة الايطاليَّة الحديثة التي قرَّبت منافع ذلك التأليف الذي يستحقُّ درساً خصوصيًّا لكثرة مضامينهِ ولتأثيرهِ في الكتبة التابعين

هذا وكنّا في وشك الانتهاء من كلامنا على ابن جبير اذ بلغتنا الطبعة الثانية من كتاب رحلتهِ التي تولّاها ذلك المستشرق الهمام السيد دي غوي (de Goeje) صاحب للطبوعات الشرقيَّة المتعدّدة (١ وحسبك باسمهِ دليلًا على مزايا هذه الطبعة التي تفوق الطبعة الاولى مع ضبطها . ومن محاسن هذه الطبعة الجديدة انَّ جناب وليّ العمل اثبت الاصلاحات التي تركها الطابع الاوّل المسيو رَيت واضاف اليها تنقيحات جديدة . وقد ابدى المسيو دي غوي اسفهُ على عدم حصولهِ على نسخة ثانية من الرحلة اشار اليها المسيو سكيابارلي وذكر وجودها في مراكش . والحقّ يقال ان هذه الرحلة لا يُعرف لها حتى الآن الّا نسخة فريدة فلو امكن مقابلتها على نسخة ثانية لاستطاع تحسينها وزيادة ضبطها وعلى كلّ حال نهنّي الدكتور دي غوي ونشكرهُ على هذه الخدمة الجديدة التي ألحقها بخدمهِ السابقة للآداب العربيَّة لاسيما للآثار الجغرافيَّة جازاهُ الله الف خير ونفع بهِ اهل وطننا الذين يجدون في مطبوعاتهِ معارف لا تحصى عن بلاد الشام في غابر الاعصار

(١ هذا عنوانهُ :

E. J. W. GIBB MEMORIAL. vol. V. TRAVELS OF IBN JUBAIR. (Wright's Text). revised by M. J. de Goeje, *Leyden*, E. J. Brill, 1907. LIII—363